الأبحاث والدراسات 55

ملامح الحياة الاجتماعية في العراق خلال عصر بني العباس

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، لغيثان بن جريس (الإسكندرية : دار السماح، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) (الجزء الثاني) ، ص ص ٢٢٩ – ٢٤٤ .

المبحث التاسع

ملامح الحياة الإجتماعية في العراق خلال عصر بني العباس (*)

(*) هذه المقالة نشـــــرت في مجلة المنهل العدد (٥٢٥) مج (٥٧) عام (٦١) الربيعان ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ١٦٨ - ١٧٤

ملامح الحياة الإجتماعية في العراق خلال عصر بني العباس

هناك صور من الحياة عديدة في المجتمع العراقي خلال حكم بني العباس (١٣٢هـ/ ٧٤٩م - ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ، منها ما استحدث مع واقع البيئة ، ومنها ما كانت ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام ، ومنها ما اقتبست من الأمم الأجنبية وخاصة الفرس ، وهذه الصور بالامكان ان يطلق عليها اسم : العادات والتقاليد ، التي سيطرت على عقول الناس ولاتزال مسيطرة حتى اليوم . هذا وتختلف هذه العادات والتقاليد باختلاف المناسبات ، فثمة عادات تظهر في مناسبات الأفراح والأعياد ، وهناك عادات أخرى تبرز في حالات الأتراح والأحزان وجميعها لها علاقة بالحياة الإجتماعية بصفة عامة .

ومن مناسبات الأفراح ، الإحتفال بالأعياد الدينية والمواسم القومية ، ويذكر أن العرب في جاهليتهم كانوا يحتفلون ببعض الأعياد والمواسم ، ويظهر أن أعظم أعيادهم كانا اثنين . فقد روى المحدثون والمؤرخون أن الرسول ﷺ قدم المدينة ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل قد أبدلكم خيراً منهما : يوم الفطر ، ويوم الأضحى ، فأول ما بدىء به من العيدين في المدينة عيد الفطر ، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة ، وفيها كان عيد الأضحى أيضا [١] ، ويقال أن العيدين اللذين كانا في الجاهلية هما المهرجان والنيروز [٢] . وقد كانت للجاهلية مواسم أخرى يعيدون فيها ويفرحون ، وهي مواسم الأسواق التي كانت لهم

---

(١) انظر تفصيلات أكثر في كتاب النويري ، نهاية الارب ، جـ ١ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر كتاب بلوغ الأرب ، للسيد محمود شكري الألوسي ، جـ ١ ، ص ٤٠٤ ، (طبعة بغداد) .

في الجاهلية كأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وكأعياد الفرس التي كان يحتفل بها متحمسة العرب ، وأعياد اليهود والنصارى التي كان يعيد فيها متهودو العرب ومتنصروهم .

فلما بزغت شمس الأسلام نهى الرسول ﷺ عن الإحتفال بغير عيدي الفطر والأضحى ويظهر أن الرسول الأعظم قد لاحظ أنه لابد لكل أمة من عيد يفرح فيه الصغير ، وينشرح به صدر الكبير ويروح فيه عن نفسه ، وأنه لابد لكل عيد من مناسبة ، وقد خشى الرسول ﷺ أنه إن أبقى الإحتفال بذينك الموسمين الوثنيين (المهرجان والنيروز) أن يكون ذلك تنويهاً بشعائر الجاهلية ، فاستبدلهما بموسمين عظيمين هما يوم انتهاء صوم رمضان ، ويوم وقوف الناس على عرفة ، قال السيد محمود شكري الألوسي : « أنه ما من عيد في الناس إلا سبب وجوده تنويه بشعائر دين ، أو موافقة أئمة مذهب ، أو شيء مما يضاهي ذلك فخشى النبي ص ان تركهم وعاداتهم أن يكون هناك تنويه بشعائر الجاهلية ، أو ترويج لسنة أسلافها ، فأبدلهما بيومي (المهرجان والنيروز) يومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفية ، وضم مع التجميل فيهما ذكر الله ، وأبواباً من الطاعات ، لئلا يكون اجتماع المسلمين لمحض اللعب ، ولئلا يخلو اجتماعهم أيضاً من إعلاء كلمة الله » . (٣) .

ويظهر أن المسلمين عادوا بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين ، وبخاصة في العصر العباسي ، إلى الإحتفال ببعض الأعياد القومية ، وعلى وجه الخصوص النيروز والمهرجان ، والنيروز هو أعظم أعياد الفرس ، ويقال : إن أول من اتخذه جمشيد ، وسبب اتخاذه - فيما يزعمون - أن

---

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٤٠٤ وما بعدها .

الملك طهمورث وكان ملكاً عاتياً فلما هلك وملك بعده جمشيد سمي اليوم الذي ملك فيه (نوروز) أي اليوم الجديد . ومنهم من يزعم أنه اليوم الذي خلق الله فيه السموات والأرض وأنه كان معظماً عند الفرس منذ أيام جمشيد ، ومنهم من يزعم أن أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران ومدته ستة أيام أولها اليوم الأول من شهر (افريدون ماه) الذي هو أول شهور سنتهم . وأما المهرجان فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان وفي اليوم السادس عشر من (مهرماه) من شهور الفرس وهو ستة أيام ، ويسمى آخرها المهرجان الأكبر . قال المسعودي : « وسبب تسميتهم له بهذا الأسم أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم ، وكان لهم ملك يسمى (مهر) يسير فيهم بالعنف والعسف ، فمات في نصف الشهر الذي يسمونه (مهرماه) فسمى ذلك اليوم (مهرجان) وتفسيره (نفس مهر ذهبت) .

وإلى جانب الأعياد الإسلامية ، عيدي الفطر والأضحى ، ظل المسلمون يحتفلون بهذين الموسمين (المهرجان والنيروز) وبخاصة في فارس والعراق طوال العصور العباسية ، وكان من عادات البعض أن يخرجوا إلى البساتين والمنتديات العامة فيتفسحون ويتبادلون الهدايا والتحف ، ويلبسون أفخر الثياب وأغلى الحلل وأثمنها . قال السيد الألوسي : «وكانوا في مواسمهم وأيامهم يتزينون بأحسن الثياب والملابس الفاخرة والحلل المثمنة والبرود المعجبة ، والفرسان منهم يتسابقون على الخيل ، والأجواد ييسرون (أي يلعبون بالميسر) وصبيانهم يلعبون أنواعا من الملاعب ، ويزمرون بالدفوف ، ونحو ذلك من التغني بأراجيز وأبيات من الشعر .. » [٤] وكانوا يوزعون الأموال والصدقات على الفقراء ، وأهل

---

(٤) المصدر نفسه

الحاجة ، كل بحسب قدرته ، وكان الخليفة يمنح عطاياه وهداياه للمقربين من خاصته ورجاله ، وكذلك كان يفعل الأعيان والوزراء ، وبخاصة في النيروز ، فقد كانوا يحتفلون فيه احتفالات لطيفة ، وربما سمح بعض الخلفاء لجماعات من المضحكين وأصحاب السماجات (المساخر) أن يظهروا في حضرته أو في الميادين العامة . وكانوا يسمحون أن يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع . أما الفقراء وسواد الشعب ، فقد كانوا يفعلون ذلك في الشوارع والميادين ، وأما الأغنياء ، فقد كانوا يفعلون ذلك في دورهم وحدائقهم [٥] . أما يوم المهرجان - وهو عيد الدخول في الشتاء- فهو أكبر الأعياد بعد النيروز ، وقد كانوا يتهادون فيه أيضاً ، ويفرحون بمقدمه ، وفي الأدب العربي نثر وشعر كثير عن احتفال الناس بهذه الأعياد [٦] .

ومن الأفراح في العراق وما جرت عليه العادة في عيد الأضحى أن يستقبل الحجاج عند عودتهم من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتقدم التهاني لهم بسلامة الوصول وآداء فريضة الحج [٧] ، وقد يشترك الخليفة نفسه في هذا الإستقبال . ويذكر في سنة واحد وتسعين وثلاث مائة أن استقبل الخليفة القادر بالله أهل خرسان القادمين من الحج الذاهبين إلى المشرق [٨] .

ومن صور الحياة أيضاً الإحتفال بختمة القرآن الكريم ، ويكون مقصوراً على الأحداث ، وتنظم بذلك المواكب ويظهرون فيها بأحسن الأزياء

---

(٥) انظر آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ وما بعدها .

(٦) انظر الفصل الممتع المفيد الذي كتبه الإمام ابن تيمية في كتابه النفيس « اقتضاء الصراط المستقيم » عن الأعياد وبدعها .

(٧) انظر ابن الجوزي ، تلبيس أبليس ، ص ١٤٠ ، ٣٨٢ .

(٨) انظر كتاب المنتظم في التاريخ ، لابن الجوزي ، جـ ٧ ، ص ٢١٥ .

ويجوبون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وقد لبسوا أفخر الثياب ، ثم تقام المآدب وتوزع الخلع على المقربين والمؤدبين ، وتقام مآدب يدعى إليها بعض العلماء وتوقد فيها النيران [٩] .

ومن الطريف أن الخلفاء العباسيين أنفسهم كانوا يتوقعون أن ترسل إليهم الهدايا من حاشيتهم وموظفيهم في جميع أنحاء المملكة عندئذ ، وأكثر من ذلك ، يطالبون بها فالمتوكل جلس في يوم النيروز لاستقبال المهنئين واستلام الهدايا فدخل عليه الطبيب بختيشوع بن جبرائيل وكان من المقربين له فقال له المتوكل ما ترى في هذا اليوم ؟ فقال مثل جرباشات الشحاذين إذ لبس قدر وأقبل على ما معي ، ثم أخرج من كمه درج أبنوس مضبب بالذهب وفتحه عن حرير أخضر انكشف عن ملعقة كبيرة من جوهر لمع منها شهاب ، ووضعها بين يديه فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله [١٠] . وقد تبلغ قيمة هدايا النيروز والمهرجان للخلفاء ولعائلاتهم مبلغاً كبيراً قد يتجاوز خمسة وثلاثين ألف دينار [١١] .

هذا ، وقد يتهادون بالقصائد الشعرية أيضاً ، خاصة إلى من هم أعلى منهم منزلة . وهكذا فعل اسحق الصابي وهو في سجنه ، إذ كتب إلى عضد الدولة قصيدة أرسلها إليه مع درهم خرداني وجزء من كتاب ، فكان مطلعها [١٢] :

تصبح بعز واعتلاء حدود

وابشر بخير واطراد سعود

---

(٩) ابن الجوزي ، تلبيس ، ص ٣٨٢ .
(١٠) انظر ، ابن أبي اصيبعه ، طبقات الأطباء ، ص ٢٠٧ .
(١١) مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(١٢) انظر الثعالبي ، يتيمة الدهر ، جـ ٢ ص ٢٨١ .

وقال :

أتتك الهدايا فيه بين موفر على قدر

المهدي وبين زهيد

وقال :

فكان احتفالي في الهدية درهماً

يطير من الأنفاس يوم ركود

وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسي وتقييده

بالشكل مثل قيودي

وكتب إليه في يوم نيروز فقال [١٣] :

تهن بهذا اليوم واحظ بخيره

وكن أبداً بالعود منه على وعد

أرى الناس يهدون الهدايا نفيسة

اليك ولم يترك لي الدهر ما أهدى

سوى سكر يحلو لك العيش مثله

وآسي أخي عمر كعمرك ممتد

وبينهما من ضرب قومك درهم

وأبيات شعر من ثنائي ومن حمدي

فإن كنت ترضى ما به انبسطت يدي

وتقبله مني فهذا الذي عندي

---

(١٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٢٨٢ .

أما حفلات التشريف - والتي اقتصرت على الخلفاء بصورة خاصة - فالعادة جرت أن يخلع الخليفة على الأمير أو الوزير والنقيب أو الوالي لإحدي المقاطعات أو غيرهم خلعاً وألقاباً . وقد عرفت عادة الألقاب أولاً منذ عهد الرسول ﷺ إذ لقب ﷺ جماعة من أصحابه بألقاب تتفق مع ما قاموا به من الأعمال وما يتصفون بها فلقب أبا بكر (بالصديق) وعثمان (بذي النورين) وعلياً (بأبي تراب) وجعفر (بالطيار) وحمزة (أسد الله)وهكذا[١٤] . ولم تستعمل ألقاب في العصر الأموي حتى جاء العصر العباسي ، فسمي كل خليفة باسم واعتبرت ألقاباً دينية فأبوا العباس (بالسفاح) وهارون (بالرشيد) وهكذا الباقون كالمهدي والمتوكل والمستعين والمأمون [١٥] وغيرهم حتى الوزراء والقواد أعطيت لهم ألقاب ، فالمأمون أعطى الفضل بن سهل لقب (ذي الرئاستين) ولقب المعتمد صاعد بن مخلد بذي الوزارتين ، ولقب المقتدر بن الحسن ابن الفرات بولي الدولة وهكذا بقية وزراء وأمراء الدولة [١٦]. هذا وقد وصلت الألقاب إلى ثلاثة وأربعة ألقاب في العصر البويهي [١٧] وبصورة عامة كانت الألقاب في عهد الرسول ﷺ تعطى لأهل التقوى والدين ولكنها تغيرت في العصر العباسي فأصبحت تعطى لرجال السياسة وفيها تعظيم وتفخيم [١٨] .

ولم يكتف العصر العباسي بمنح الألقاب ، بل اعطيت معها خلع بلغت إلى السبعة مع الطوق والسوار [١٩] وأعطيت للأمير بحكم لواء [٢٠]

---

(١٤) هلال الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ١٢٨ .
(١٥) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٦ .
(١٦) الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(١٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٤ .
(١٨) القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٩١ .
(١٩) السيوطي ، المصدر السابق .
(٢٠) الصولي ، الأوراق ، ص ١٩ .

وجعل أمير الأمراء ، وكذلك لابن رائق [٢١] وغيرهم من الأمراء والقواد ، وكانت العادة أيضاً أن يخطب على المنابر للخلفاء ويذكر اسمهم فقط ، ولكن في القرن الرابع شارك الأمراء الخلفاء في ذكر اسمهم مع اسم الخليفة [٢٢] وكانت العادة أن تضرب الطبول والدبادب للصلوات بحضرة الخليفة [٢٣] فقط ثم اخذت تضرب للأمراء أيضاً قيل أول من ضربت له الدبادب هو عضد الدولة (٢٤) ثم استمرت طيلة فترة حكم بني بويه [٢٥]

ومن صور مناسبات البهجة والأفراح ، اللعب بالنرد والشطرنج ، وكان العصر العباسي من أنشط العصور التي اشتهر فيها اللعب بالشطرنج ، حيث نبغ فيه لاعبون معدودون منهم العدلي الذي ذكره ابن النديم في أول الفصل الذي كتبه عن البارعين بهذه الصناعة والمؤلفين فيها وفي حيلها ، وقد ذكر عنه أنه أول من عمل كتاباً في الشطرنج ، وله أيضاً كتاب النرد وأسبابها واللعب بها [٢٦] . وممن ذكرهم ابن النديم في عداد الشطرنجيين الرازي ، ولا ندري أي رازي هو ، غير أنه ذكر في صدد الكلام عنه ، أنه كان نظير العدلي ، وأنهما كانا يلعبان بين يدي الخليفة المتوكل على الله ، وله كتاب في الشطرنج [٢٧] . أما إمام هذه الصناعة فهو أبو بكر الصولي محمد بن يحيى الكاتب ، الذي يذكر أنه كان أحسن شطرنجي في زمانه حتى لقب به ،وقد ألف كتاباً ذائع الصيت في الشطرنج ذكره إبن النديم ، وقال : له كتاب الشطرنج النسخة الأولى والنسخة

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .
(٢٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١١ ص ٢٩٩ .
(٢٣) الصابي ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(٢٤) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٢٩٩ .
(٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم في التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٣٤٠ .
(٢٦) انظر كتاب الفهرست ،لابن النديم ، طبعة مصر ، ص ٢٠٣ وما بعدها ، و ٢٢١، انظر أيضاً المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ١ ، ص ٣١١ .
(٢٧) ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

الثانية [٢٨] .

ومن وسائل التسلية الأخرى التي عرفها العباسيون بل ووجدت لها رواجاً عند الكثير من فئات المجتمع ، مسابقة الخيل والبغال والحمير والكلاب والطيور [٢٩] ، وكذلك المصارعة والركض والسباحة ، والصيد والطرد [٣٠] ، وجميع هذه الوسائل وغيرها كثير مارسها عليه القوم وعامة المجتمع ، بل دون في بعضها مؤلفات عدة ، ومن يدقق النظر والإطلاع في كتب التراث وبخاصة الأدبية منها ، يجد معلومات غزيرة عن ممارسة مثل هذه الألعاب وبخاصة في المراكز الحضارية الكبرى في العراق والشام وبلاد فارس وما حولها ، والمسامرة بالقصص وسرد الطرف من الصور الإجتماعية التي عاشها ومارسها العباسيون في قصورهم ومنتدياتهم ، بل ومارسها أغنياء المجتمع وفقراؤه ، ومن يطالع كتب الآدب ، أمثال مؤلفات الجاحظ ، وابن عبد الله ، وابن قتيبة والثعالبي ، والأغاني والقيرواني الحصري ، وغيرها كثير يجدها مليئة بالقصص والطرف التي كانت تجرى في أماكن عدة وفي أزمان مختلفة خلال عهود بني العباس ، بل ويجد تفصيلات أكثر عن طرق عرضها ، ونوعية ما يقدم من فكاهات وقصص ، ومن كان يدعم مثل تلك المجالس ، بل ومن كان يرتادها إما مشاركاً أو مشاهداً ، إلى غير ذلك من التوضيحات والتفصيلات الأخرى . وهناك صور أخرى تمثل نواحي الحياة في المجتمع، نذكر منها شيئاً فيما يخص الطعام . واللباس وبعض الأمور الأخرى . فمن العادات المتبعة عند الطعام هي غسل الأيدي قبل الطعام وبعده ويكون في وعاء واحد يسمى الطشت ويبدأ رب البيت بالغسيل [٣١] ويذكر متز أن العادة جرت أن يبدأ الغسل من جهة اليسار حتى ينتهي بصاحب

(٢٨) المصدر نفسه .
(٢٩) كشاجم أدب القديم ، ص ٢٧ .
(٣٠) انظر الهمذاني ، المقامات ، ص ١٣٥ .
(٣١) الغزالي « إحياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٦ .

البيت [٣٢] ، بينما يغسل يديه بعد الضيوف عند الإنتهاء من الطعام [٣٣] ويستعمل عادة الأشنان في الغسيل [٣٤] ، ويذكر كشاجم أن عامة الناس تعودوا على إجلال رؤسائهم وخلفائهم بعدم غسل أيديهم بحضرتهم وأجازوا ذلك مع نظرائهم ليكون بذلك [٣٥] أليق ويذكر أن القائد الأفشين أكل عند الخليفة المعتصم يوماً وبعد الإنتهاء من الطعام غسل يديه بحيث يراه المعتصم فأزعجه بهذا التصرف [٣٦] . وهذا وبعد الغسيل تنظف الأسنان . حكي أن المأمون كان يصرف ساعتين كل يوم يستمع فيهما للشعراء اثناء تنظيف أسنانه ، كما يستعمل السواك لتنظيف الأسنان [٣٧] .

هذا ، وقد اهتم الكتاب بآداب الطعام ، فكتب الغزالي خمسة قواعد لآداب الطعام [٣٨] وكذلك كشاجم [٣٩] كتب في هذا الموضوع إضافة إلى عدد كبير من الكتاب والمؤرخين من اهتم بذلك ، فالخطيب البغدادي ذكر أنه بعد الإنتهاء من الطعام على صاحب الدعوة أن يبخر المدعوين [٤٠] وعلى المدعوين أن يشكروا صاحب الدعوة عند مغادرتهم للبيت [٤١] . أما عادات اللباس فهي كثيرة أيضاً فلكل طبقة زي خاص

---

(٣٢) كشاجم ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٣) انظر الغزالي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧ ، وللمزيد أيضاً ، انظر الأزدي ، حكاية إبن القاسم ، ص ٤١ .
(٣٤) آدم متز المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .
(٣٥) كشاجم ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٦) آدم متز ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .
(٣٧) الأزدي ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، انظر أيضاً الغزالي ، مطالع البدور ، جـ ٢ ص ٦٨
(٣٨) الغزالي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦ - ١٨ .
(٣٩) كشاجم ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٤٠) المصدر نفسه ، انظر أيضاً الخطيب ، التطفيل ، ص ٨٦ .
(٤١) الغزالي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥ .

بها ، فالخلفاء اتخذوا السواد [٤٢] ولا يمكن تغييره لأنه اصبح شعاراً لدولتهم وكذلك الوزراء وغيرهم من الداخلين لدار الخلافة عليهم أن يتخذوا الأقبية السوداء لباسا لهم [٤٣] وحتى من يحضر مجالسهم لبست الأثواب المصبغة الزاهية الإحمرار والإصفرار والأخضرار يصقلونها حتى تلمع [٤٤] وفي المواكب تتخذ أثواب خاصة بها أيضا [٤٥] وجرت العادة أن يلبس القضاة والفقهاء المبطنة والطيلسان الأسود والدراعة السوداء والقلانس المستديرة حتى أبدلت بعد ذلك بالعمائم السود المصقولة .

أما عادات الأحزان فهي كثيرة ولاتزال متبعة حتى اليوم في المجتمع وتبدأ عند تشييع المتوفي ، إذ يخرج الأهل والأصدقاء ، والمعارف ويسيرون خلف الجنازة [٤٦] فالمرأة تخرج وتبكي وتنشر شعرها وتلطم وتنشد الأشعار ، وهكذا فعلت عند مقتل الخليفة المسترشد [٤٧] وقد تخرج نائحة خاصة خلف الجنازة [٤٨] وربما يخرج رجال من أصحاب الذكر يسيرون خلف الجنازة وهم يقومون بالتهاليل وترتيل الألحان [٤٩] .

وفي حالة الدفن اعتاد البعض من أهل بغداد أن يدفن موتاه خارج أسوارها والبعض الآخر يدفن موتاه في النجف وهؤلاء أصحاب المذهب الشيعي وتنقل الأموات إلى هذا المقر حتى من الأماكن البعيدة ، ولازالت هذه العادة متبعة ليومنا هذا ، وذكر أن عضد الدولة الأمير البويهي نقل

---

(٤٢) هلال الصابي ، الوزراء ، ص ٢٦١ .
(٤٣) هلال الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٩١ .
(٤٤) الموشى ، الوشاء، ص ١٨٣ ، انظر أيضاً جرجي زيدان ، التمدن الإسلامي ، جـ ٥ ، ص ٨٣ .
(٤٥) الصابي ، رسوم ، ص ٩٠ .
(٤٦) ابن الجوزي ، ذم الهوى ، ص ٤٧٨ .
(٤٧) ابن الجوزي ، المنتظم في التاريخ ، جـ ١٠ ص ٤٦ .
(٤٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٣ ، ص ٣١ .
(٤٩) ابن القوطي . الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة ، ص ٢٣٧ .

جثمانه إلى النجف في القرن الرابع الهجري [١٥] وكذلك استمرت عادة قراءة القرآن على القبور لدى جميع طبقات المجتمع حكى أن امرأة فقيرة دفعت إلى رجل رغيفاً وطلبت منه أن يقرأ عند قبر ابنها فقرأ « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا » قالت له هكذا يقرأ عند القبور؟[٥١] .

وعلى ذكر طريقة دفن الموتى نشير إلى عادة دفن النقود أيضاً تحت الأرض خوفاً من ضياعها : فالأمير الذي يحكم كان يحفظ أمواله في الصحراء [٥٢] . وهكذا كان يفعل التجار . حكي أن تاجراً قدم من خراسان متأهباً للحج ، وبقى من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها ، فقال إن حملتها خاطرت بها وإن أودعتها خفت مغبة المودع ، فمضى إلى الصحراء ودفنها تحت الشجرة ، وعندما عاد لم يجدها فوصل الخبر إلى عضد الدولة فاستطاع بمهارته وعمق تفكيره أن يهتدي إلى السارق [٥٣] .

أما المآتم التي تقام على الأموات ، فكانت على نوعين ، منها الخاصة بالرجال والأخرى بالنساء ، يقرأ فيهما القرآن . ويختار لمجالس النساء قراء عميان أو قارئات يلبس فيها الثياب ذات اللون الأسود وهي تمثل شعار الحزن . وعلى ذكر ثياب العزاء فإن المؤرخين وغيرهم من الكتاب لم يمدونا بمعلومات وافية عن لونها ووصفها ، على أننا نستطيع أن نقول أنه كان يغلب عليها اللون الأسود وذلك على ضوء ما ذكره بعض المؤرخين عن وفاة الخليفة المستنصر العباسي سنة ٦٤٠ هـ وارتداء رجال الدولة الثياب السوداء في يوم وفاة هذا الخليفة [٥٤]

---

(٥٠) ابن الجوزي ، المنتظم في التاريخ جـ ٨ ص ٣١٧
(٥١) ابن الجوزي ، الظراف والمتماجين ، ص ٩٨
(٥٢) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١١ ص ١ ٣
(٥٣) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ٥٢
(٥٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٩٥

ومن بين العادات الدينية التي تمثل جزءاً من المجتمع العراقي زيارة قبور الأئمة والشهداء من أهل البيت ، وكذلك قبر الإمام أبي حنيفة ومشهد الصحابي سلمان الفارسي . وقد زار بعض الخلفاء قبور أهل البيت ، وكانت تنفق أموال كثيرة على قبور الشخصيات التي تتمتع بصفة دينية ، فالخليفة المستنصر عند زيارته لقبر الإمام موسى بن جعفر أعطى ثلاثة آلاف دينار لنقيب الطالبيين لصرفها على المعنيين في مشهد الأئمة (٥٥) . وفي حالة وفاة شخصية كبيرة كالخليفة أو الأمير فالحزن يعم بغداد كلها اذ تغلق الأسواق وتعلق الأقمشة السوداء على جدرانها وتقام المآتم في كل مكان . وحدث مثل ذلك في القرن الخامس الهجري عند وفاة الخليفة القائم بأمر الله فأظهرت علائم الحزن لمدة ثلاثة أيام (٥٦) على المستوى الرسمي والشعبي ، وكذلك عند وفاة الأمير البويهي عضد الدولة . هذا وقد يظهر أصحاب المذهب الشيعي الحزن الشديد في ذكرى استشهاد الإمام الحسين يوم عاشوراء (٥٧) ولاتزال عادة اظهار الحزن مستمرة في العراق حتى الوقت الحاضر .

وخلاصة القول ، أن العهود الإسلامية الأولى وبخاصة عهود بني العباس شهدت أنماطاً إجتماعية كثيرة ، ورثت من السابقين لتلك العصور ، وبعضها تم إقتباسه من الفرس وغيرهم كعيدي المهرجان والنيروز . وما حدث من تنوع وتفنن في أساليب العيش خلال العصور العباسية ، ليس إلا نتيجة للإندماج والإنفتاح البشري الذي عاشته تلك الأزمنة ، حيث كان سكان المجتمع خليطاً من العرب ، والفرس والأتراك ، والبربر ، والصقالبة والديالمة ، والأحباش ، والهنود وغيرهم ، كما ساد الخير والثراء الكثير

---

(٥٥) ابن القوطي ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
(٥٦) ابن الجوزي ، التنظيم ، جـ ٨ ، ص ١٦٥ .
(٥٧) المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص ١٥ .

من سكان البلاد ، وبالتالي حصل التطور الحضاري الإجتماعي في جميع ضروب العيش ، وليست النماذج التي أوردناها في هذه المقالة إلا شريحة بسيطة من الكيان الإجتماعي الكبير الذي كانت تعيشه جميع فئات المجتمع تحت مظلة الخلافة العباسية .